٢٠ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — عاداتهم

من العادات التي تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء الأول أو بعيد الظهر ، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الإثنين ، إلى الحمام في أبهة واحتفال[1] . ويسمى هذا زفة الحمام . فيتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع[2] . وكثيراً ما تنتهز الفرصة للاحتفال بختان الولد ؛ فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها . وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج . ويوجد أيضاً سقاء يروي ظمأ السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما لفا من الساذجة أو المذهبة ، أو من الصيني مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر . ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية ، ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة . وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات ، ينقد من اثنتين اثنتين ، وتلفهن الفتيات العذارى . ويلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء ؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال . ثم تلبسهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية قرمزية أو وردية ، أو صفراء ، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة . غالباً ما تكون وردية وصفراء . ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة المعلق على كل منها منديل مطرز ، أربعة رجال . ويفتح صدر هذه المظلة . وتختفي العروس تحت ملابسها فتتدثر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بشال كشمير أحمر ، أو نادراً بشال أبيض أو أصفر ، ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى يوضع عليه الشال فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها المهنة وحليها خلا قصة أو قصتين[1] . وحلي أخرى أحياناً من اللماس والزمرد تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطي الجبهة . ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها ، وامرأة أخرى تروح عليها عند ما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة . وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة . وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض . وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير ؛ ويأتي في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة . ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً . ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة

(شكل ٤٦) زفة عرس « قسم أول »

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام . وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسلينهن في الحمام . ثم تعود

(١) وقد رأيت صورة هذه الزفة وأخرى صاحبتها لها بعد تسيير بعض ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة

(٢) ونوع الموسيقى على العموم يدانى ويتزيف عادة الطائفية

(١) أنظر وصفه هذه الحلى في الملحق

الزفة بالنظام نفسه . ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ، ثم تتناول (النقوط) من صديقاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك العجينة حتى لا يبقى موضعاً فيها ، فتنشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالي قاتم . وتستعمل للدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة (ليلة الحنا)

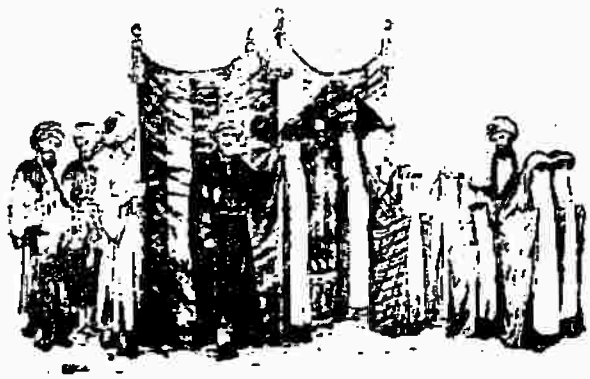

(شكل ٤٧) زفة عرس « قسم ثان »

ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة ، وأحياناً في اليوم السابق . فيعرض (المهزوق) ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً . وقد وصفت الألعاب الشائقة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي . وتسمى هذه الزفة لأهميتها (زفة العروسة) . أما الزفة السابق وصفها فتسمى (زفة الحمام) لتميزها عن الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلاً لمصاريف الاحتفال وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً . وتتناول العروس الطعام مع حاشيتها ثم تبدأ الزفة بعد الظهر ، فتسير ببطء وانتظام كزفة الحمام سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ولو كان منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة . وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجهد تسلية المتفرجين بحيلهم وألعابهم العجيبة أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة[1] . وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف الذي كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد علي ولاية مصر ، بنته منذ حوالي خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة ، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه . وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح بعضمة مناديل تشربت بالدم . وقد وصف لي هذه الألعاب شاهد عيان . وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاشمئزاز لا يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة إلا أنه يندر أن يشاهد الآن[2] . وقد يعرض الحواء أيضاً حيلاً مختلفة إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك . وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان ، وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسة في العاصمة يمثلون أعمالهم العادية . ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً ، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقيين ، وفي عربة ثالثة بعض النوائم . وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مقفلة ، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقريباتها وصديقاتها

(١) وأكثر ما يشاهد في هذا الوقت الحبل الشاق الذي يقوم به سقاء يطلق عليه لقب (قيم) ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة كبيرة تملأ رملا وماء أطول وقت دون أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً في زفة عرس قيما يحمل قربة من الرمل والماء تزن أكثر من قنطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق قبل الزفة وأتمها حتى الغروب

(٢) وقد وصفه مبركهاردت وصفا صحيحا في كتابه «الأمثال العربية» (ص ١١٥ — ١١٦)

الجيد فوق البراذع المرتفعة ، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى فى نهاية الزفة

وتؤدب للعروس ورفيقاتها مأدبة عند بلوغهم منزل العريس ، وسرعان ما تنصرف الصديقات وتبقى أم العروس وأختها وحدها معها أو إحدى قريباتها الأخريات وامرأة أخرى تكون (البلانة) عادة ، وتمضى الليلة التالية (ليلة الدخلة)

ويبقى العريس فى الدور الأسفل ، ويذهب قبل الغروب إلى الحمام فيغير ملابسه وقد يغيرها فى المنزل ؛ وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل ، ثم يذهب حينئذ — حسب العادة الشائعة — إلى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين لإقامة الصلاة ؛ وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً ، فيتوجه إلى المسجد مصحوباً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين ، وبصحبته بعض أصدقائه وحامل المشاعل : والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهى طرفها الأعلى بإطار إسطوانى من الحديد يوضع فيه خشب مشتعل ؛ وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل ٤٨) ،

(شكل ٤٨) مشاعل

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ويتم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشى بين صديقين فى مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفى أكثر الأحيان لا يصلى العريس مطلقاً ، أو يصلى من غير وضوء مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط[1] . وتعود الزفة من المسجد فى نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه . ويتقدم الزفة — كما سبق — موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطاراً معلقاً فى مذراة يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى ، ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملى الإطار أن يديرها من حين لآخر . ويثير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التى تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم فى شكل حلقة مستطيلة مقفلة يمشون وفى يد كل منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمشون فى مؤخر الحلقة التى تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة يغنى أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس ، ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونفخات الزمور الحادة التى تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر . وينتهى الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية

هذه هى الطريقة الشائعة فى زفة العريس . وهناك طريقة أخرى أكثر اعتباراً تسمى (زفة سادانى) يسير العريس فيها بين أصدقائه كالطريقة السابقة وبين حامل المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون لاحترافهم الغناء فى مثل هذه الأوقات (ولاد ليالى) ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ويشرع المغنون فى الغناء أو إنشاد الموشحات فى مدح الرسول (صلعم) ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات ويتناولون القهوة من العريس وأصدقائه

(يتبع) عبد الله طاهر نور

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة مماليك » أو « صلاة المماليك »